كتاب الرؤى في عودة مندائي إلى وطنه -3-

مونيكا أجمل من شكسبير وعريف المدفعية يكتب عن المدفع الروسي

نعيم عبد مهلهل
دوسلدورف

حيث تمنيت منذ أوّل كتابة حصتي في هذه الرواية أن يكونَ آدم هو ظلال الرؤى فيما أحاول ان أصل إليه في تلك الحكاية الشهرزادية الّتي ابتدائها روائي يسكن دبي، وينهيها روائي اخر يسكن مدينة المانية صغيرة تسمى (زولنكن) منتصف الطريق بين مدينتي كولونيا ودوسلدورف وهي واحدة من أشهر أمكنة العالم في صنع السكاكين وشفرات موس الحلاقة وفوهات المدافع والاغرب إنها تصنع سيوف الساموراي اليابانية أيضا.

يكتب لي شاكر: حسن ان تعود لآدم لتعرف ماذا نويت أنا في محاولتي لامساك فزع الروح العراقية يوم يتم جمعها كأشلاء في طشت الخَردة؟

وحين أسأله: هذه المرة انت تفتح كوة الجحيم وتحاول في رؤية أخرى أن تحمل لي جهة الفردوس الّتي لن أرها؛ لأني أرى في نصك الذي أتاني مع رعشة أصابع ساعي البريد، أرى الطقس الرمادي وطقوس ما سيحدث بعد الموت، لهذا انتشر الفزع في أصابع الرجل، وهو يحمل مُسوّدتك، وكأنك تريد أن تنقل أرْوَاح العراقيين بقلها ومسكنتها ورغبتها بالهروب من خناجر ومسدسات ومفخخات القتلة إلى جهة المنفى الذي ذهبت أنت إليه في سبعينات القرن الماضي.

هاجسك المسكين الذي يريد السكن هنا ليدفئ بأمان اللحظة الرومانسية الّتي حملها إليك صوت الأرمني شارل ازنافور.

ولا أدري أن كان شاكر هو وائل الذي جاء الان من قارة رامسفيلد إلى الهوة العميقة الّتي لا نملك من معرفتها سوى هاجس الاب واجداده.

إنّه اختيارك أن تعود من مهجرك وقد عرفت أن لك وطنا تجتاح لتعود إليه. على الرغم من تلك السوداوية الّتي حملتها المسوّدة كمتن عريض لرؤى التساؤل والخوف ورغبة الاكتشاف منذ اجاباتك على موظف الاستعلامات، وأنت تبغي التوجه إلى (سواديا).

سرد مخيف

وانتهاء بهذا السرد المخيف لطقوس الموت وهواجس من يرمس شفتيه بقبلة وداع الحياة، وهو ما اوحت به إليك كتب التراث والمندائيين، واقتبست منه أو استوحيت، وفي النهاية النتيجة واحدة أنك تريد أن يعرف العالم سريالية ما منحته لنا الاقدار من نهايات حساباتها، ارتهنت أغلبها في اعناق الدبابات، وفوهات البنادق وشارة الركن الّتي يضعها القادة على اكتافهم، حتّى وهم في اسرة الغرام مع زوجاتهم أو حبيباتهم.

أما أنا أردتُ أن استرجع تلك الدهشة عند تلك الأرْوَاح، فوجدت أن (تلك) هذه عبارة عن دوامة تاريخية تتنوع وتتلون فيها المواقف والاقدار والمصائر، وإن صورة الموت الجماعي في اقبية مقابر أور المقدسة مثلت المؤشر العميق لرغبة العراقيين لمعرفة جهة الموت وامكنتها في حياتهم قبل أن يعرفوها في موتهم.

أنت يا وائل ذهبت من أجل ذلك. أليس كذلك؟خرج إليّ وجه وائل من داخل المسوّدة الّتي بدأت اكرعها قراءة، مثلما كانت الهة أور تكرع الخمر بين نهدي عشتار، واجابني: نعم من أجل هذا؛ لأن ابي في وصيته الّتي كتبها على شكل معادلة فيزيائية تقول: وزن روحك الذي هنا في منفاك يقابله وزن ذكرياتك في المكان الذي ولد فيه ابيك واجدادك هناك.

تلك هي معضلتك يا شاكر، عليّ أن أقرأها واتعامل معها من خلال معضلة وائل في مجيئه إلى هنا ورغبته بالنوم على سوابيط القصب، وليس على سطوح الملاجئ الممتدة على خطوط النار في جبهة شرق دجلة الممتدة من وطن المندائيين في هور الكحلاء ومرورا بناحية النبي اليهودي العزير وانتهاء بجهة القرنة حيث شجرة جدك آدم.

نعم أنا نفسي أردتُ أن استرجع تلك الدهشة عند تلك الأرْوَاح من خلال بشر طيبين لم يبتعدوا عن نسل آدم ونوح وإبراهيم... اسمهم الصابئة المندائيين. ووائل الذي جاء من بلاد والت ويتمان؛ ليبحث عن أرْوَاح اجداده هو أحدهم، ومن الذين حمل الوصية تفاصيل مغامرة؛ ليعود إلى بلاد لم تعرف بعد حالة الهدوء والاستقرار وما زال رجال المارينز يشوهون موسيقى ارصفة مدن البلاد بصوت نشاز موسيقى حزمهم العسكرية الخاكية.

ما زلت أتذكر يا وائل مرة كنت اناقش فيها ذاك المندائي الطيب الذي نحرته الشظية بعد ثلاثة أعوام من مشاركة المصير والقدر، ونحن نعيش الخوف من مجهول الحرب مرة فوق ربيئة جبلية في جبال بنجوين، ومرة أخرى بحفرة ملتهبة على ضفاف بحيرة الأسماك، عندما كنا نفسر سبب أن يكونَ بسطال الجندي أسودا وملمعا كما المرايا، حتّى في صولة الهجوم، ويفسره صديقي المندائي أن هذا يرتبط بنهاية ضحايا القبور، ظلمة القبر.

اضحك وارد: لا ترهن موت الحرب، والاستشهاد فيها بلون بسطالك، ان سمع آمر السرية سيسجنك.

فيرد: إنها حقيقة، فكلّ سواد على الأرض لابدّ أن يذكرنا بعتمة القبر.

ربما بسبب هذا أرادَ الامريكيون الهروب من تعاسة اللون الأسود على بساطيل جنودهم وجعلوها بلون خاكي، وعلى الرغم من هذا، فحين يقتل المقاومون جنديا أمريكيا في شوارع مدن العراق، هو سيذهب إلى جحيم قبره الأسود حتّى لو كان بسطاله خاكيا، إذن النهاية واحدة لكلّ جزم الجنود وفي كلّ الحرب.

ستستمع إلى حكاياتي كثيرا يا وائل؛ كي لاتصل إلى تلك السوداوية الّتي اشعرتنا أن الموت يأخذ من حياتنا نصف بهجتها بسبب هذا القدر السيء الذي تخيلته كتب التراث كما تريد أن تتخيله، عبرة والتحسب لما يحدث حين تتوسد الأجساد نعوشها، لكن تلك الكتب، وهو ما لم يؤشر إليه شاكر أو ينتبه له، ان تلك الموروثات منذ لحظة وصف جلجامش لموت خله انكيدو ومرورا بدهشة ابي العلاء المعري معه، وما كتبته الكتب السماوية وما تخيله دانتي في كوميدياه الإلهية لم تفرقْ في سيناريو فصول ما يحدث داخل القبر لبشر أتى شهيدا وهو يدافع عن بلده، أو بين طاغية أو لص أو قواد، على الرغم ان المرويات في شروحات هذا الأمر تؤكد ان الشهيد مكانه الفردوس والطاغية مكانه الجحيم.

لقد استعنت يا شاكر بنصوص تتحدث في حالة الموت كعموم ولم تنتبه إلى تخيل لحظة حين يتقابل منكر ونكير مع قيس وليلى أو مع روميو وجوليت أو مع هتلر وايفا براون ماذا سيكون سيناريو الحساب وماذا ستكون الردود على أسئلة الملكين. الذي صورتهما لي جديدة بوجهين مرعبين وأحدهما يملك صولجانا من لهب، وآخر يمسك سجلا كبيرا وعلى غلافه اسم الحسين ووردة ودمعة، وتقول جدتي: في ميثولوجيا وصفها للملكين ان الدمعة تلك هي دمعة زينب اخت الحسين يوم تركته جسدا مسجّىً في أرض كربلاء وحملوها هي ومن بقي من بيتهم بقافلة إلى الشام.

كلّ شيء يا وائل يرتهن بالميثولوجيا، وأوله الموت. فلا تبتعد في خطوتك عنّي، كن أنت وشاكر في الجوار دائما، وقد شعرت بكآبة التخيل أنك في نهاية الأمر الحفرة والتراب وفي الخارج هناك من يشعل شمعة ويرش ماء الورد على شاهدة الرخام الّتي تحمل اسمك وتاريخ ولادتك ويوم رحيلك عن هذه الدنيا تلك هي ميثلوجيا الموت، تؤسسها الاخيلة وتصنعها متغيرات الزمن وحياة البشر، من لحظة إدراك أننا شعرنا بانتصاب السيف فينا والشعور بسن البلوغ إلى تلك الدمعة الحارة الّتي تنساب على الخد وانت تسمع أحدهم يقول قرب وسادتك: اتلوا الشهادة بدلا عنه فقد لا يستطيع إتمامها، وهو في النزع الأخير، ولكن يا وائل قل لي: ماذا كان ينطقون اجدادك في موتهم الهادئ؟

تتحرك عيون الشاب صوب صورة ابيه المرسومة في أفق اخضر تغطيه ملامح انوثة، سماء زرقاء، وغابات القصب، ويسأله: ماذا كان ينطقون اجدادي: فيرد عليه صدى صوت والده، اسمعها يا ولدي واحفظها؛ كي لا تنساها، فمخاطر الطريق إلى مدن القصب والرؤيا صعبة وخطرة ومفخخة، اسمعها يا ولدي سأتلوها عليك بالمندائية والعربية: ((ابْشوميهون اد هيي ربي × اكّا هَيّي اكّا ماري اكّا مندا اد هَيّي × اكّا باثَر انْهورا × ابْسَهْدوثا اد هَيّي × وابْسَهْدوثا اد مَلْكا راما ربّا إد انهورا × × إلاها ربّا اد من نافْشي أفْرَشْ × اد لا باطلْ وَلا مُبْطل اشْمَحْ يا هَيّي، ماري، مندا اَد هَيي × وهيي زَكِن))

باسم الحيّ العظيم × مَوجود الحيّ × مَوجُود الرّب × مَوجود عارف الحَياة، بشَهادة الحَيّ × بشَهادة ملك النور السامي× اللَه الحيّ الازلي الّذي تَكَون من نَفْسه × الذي لا باطل ولا مُبطل لاسْمَه شيء × جل جلالك يا اللَه × جل جلالك يا رَبي × جل جلالك ياعارف الحياة × والحيّ المُزكي))

مشاعر المكان

هي لا تشبه شهادتنا يا وائل، نحن نختصرها بشهادة أن لا أله إلا الله وأن محمدا رسول الله، ولكنهما يلتقيان في ذات الحس والرؤيا والمشاعر والمكان، الله يوحدهما، وتلك هي الغاية لتطمئن الروح، إنها حققت في دنياها، إنها ستذهب إلى السماء من خلال هوة القبر وإن هناك الكثير من الرحمة حين تنطق الشهادة بقناعة قلبك والاجمل أن تنطقها انت دون أن ينطقها أحد غيرك. إذن هي رواية عن الأرْوَاح الّتي تموت اجسادها جراء عارض ما، وفي العراق الموت في كثير من عوارضه هو موت الشظايا والحروب والمفخخات.

إنها دراما تشمل كلّ شيء...

وقد نسيت يا شاكر أن أبا وائل في إحدى محاولاته في القضاء على راتبة الزنزانة الّتي حبس فيها وحتى ينسى ألم عصى المفوض الذي كان يضربه بها قبل أن يقدم له ماعون الحساء كان قد كتب قصة عاشها، وهو يعيش حزن موت طائر الكناري الذي أحبه منذ ان جلب له جده الشيخ دخيل قفصا وفيه طائران وقال له: عبد الجبار، أنت تحب الفيزياء، وعليك ان تتخيل رومانسية الطيور بشكلها الفيزياوي.

ربما نسى أن يقصها لك، ولكني وجدتها ضمن أرشيف المكتبة الوطنية، وفيه طائر كناري، وكان مثل جدي مُولعا بتربيتها؛ ولأجلها كان يقضي الصيف في موطنها الاسباني: إن السلم هو رحمة يسوع الصاعد مع الطائر الاسباني إلى السماء وموته السريالي الذي اقترن بشارب سلفادور دالي الذي هو اسباني أيضاً.الآن وعبر نافذة زنزانتي الصغيرة في الامن العامة والتي اتخيلها تطل على الحديقة الاستوائية واسراب من الطواويس تمشي متخاتلة في صباح تهب عليه نسائم المحيط القادمة من قرى افريقيا البعيدة للمكان الذي تمتلكه اسبانيا على الرغم من أن أغلب سكان جزر الكناري من أصول امازيغية.

ومن أتلى بتلك المسوّدة الّتي كتبت بذات حبر القلم إلى الذي اهداه له اينشتاين يوم كان طالبا في معهد العلوم الفيزياوية والذرية في ما سوتيش، وكيف عليك أن تتخيل ان ولادتك من هوس محبته لذكرى قفص الطيور سافر إلى موطنها، فقط ليعيد اكتشاف خواطره الفلكية الأولى عندما أخبره جده الشيخ دخيل أن الكناري تبعث أصواتا خاصة تستنبئ فيها بسقوط الامطار.

((يوم وطأة قدماي (لاس بالماس) إحدى جزر الكناري تساءلت متعجبا كيف تحقق الحلم المستحيل أيام كان الحرمس ينهش في اجسادنا حتّى في نشوة احلامنا وامانينا ونحن نسمع ام كلثوم من المذياع في ذلك الليل الذي هو امتداد لأديم قديم يعود إلى اللحظة الّتي قرر فيها نوح (ع) صناعة سفينته.

أيام كانت تلك الاحلام عند بعض المعلمين الذين يكرهون السفر ويعتبروه بطراً عدا السفر إلى مدن الائمة المقدسة، وكانوا أيضاً يعتقدون أن جزر الكناري كلّ سكانها من الطيور.

ويسألني أحدهم: لماذا تحلم بالذهاب إلى جزر ليس فيها سوى طيور الكناري وبأمكانك رؤيتها هنا في قفص طيور الكناري الذي جلبه لك جدك في طفولة قلعة صالح والذي كان يحب تربيتها.

ضحكت وقلت: هل تعرف أن هذا المكان على الرغم من جماله إلا أنه بالنسبة لهذه الطيور منفى قاس، فإن أي يوم شرجي، ونظرة اللامبالاة الّتي ترمقها الجواميس في عودتها من مراعيها، وعدم الاهتمام بها؛ لأنهم يعتبرونها طيور وحشية مدللة لا تحب سوى لب حب الشمس (الأكراد) والحنطة المغسولة بماء حلو، وهذا ما كان يوفره جبار على الرغم من علمه أن طيوره منزعجة جداً من المكان الذي تخلوا فيه نباتات كبيرة الأوراق والواح الورد الاستوائي، واكتشف هذا حين أقدم أحد الطيور على الانتحار بعد أن رفض تناول حب الشمس وشرب الماء.

عاشت الكناري معنا وكنا نشعر أنها تحفظ معنا طقوسنا المندائية وادعيتنا، وكلّ صباح اتطلع إلى حزنها وتغريدها الهجين، ورغبة بعضها ليلتحق مع الطير الذي غادر القفص منتحرا ودفنه صاحبه (جدي دخيل) على ضفاف طين الاهوار رغبة منه أن يظل جسده باردا في غربته، والغريب انه وضع في مقدمة قبر الطائر صليبا صغيرا صنعه من تعامد قصبتين، وقال: لقد جلبوا هذا الطائر المسكين من أرض مسيحية؛ لأنه يدفن في منفاه، علينا ان نضع الصليب شارة بركة لتحمي نومه الهادي هنا.

ذلك المشهد الغريب عن بيئة المكان وذاكرته هو من دفع معلم الرسم في مدرستنا ليرسم على ضوء الفانوس لوحة اسمها (سريالية موت طائر الكناري) وقد رسم الطائر يغادر قفص جدي بسلالم على شكل صليب، فيما جعل شارب سلفادور دالي المقوس القفل الذي كسره الطائر وخرج منتحرا.

فسر المعلم لنا ذلك في طفولتنا عندما عرف أني امتلك قفصا أتذكر من هنا، المكان الذي يسرق من خيال الجنّة فينا الكثير من التفاصيل وأظنُّ أن السومريين تخيلوا دلمون بما تمنحه لك فتنة المشاهد في حدائق جزر الكناري، فأذهب إلى حسرة اشتياق غريب إلى دموع جدي دخيل، عندما أحس أنه كان سببا في انتحار طائر الكناري في قفصه فحزن وأعتقد أنه اقترف جريمة لا تغتفر وأتذكر قبره الصغير الذي علاه مد مياه الفيضان في الاهوار ذات صيف واختفى القبر والصليب.

ولكن ذلك المشهد السريالي لشارب سلفادور دالي وهو يصير قفلا للقفص ظلّ اسير المخيلة حتّى عندما أتت الحرب، ونالت من وجودنا في المكان عندما تم استدعاء كثير من المعلمين إلى خدمة الاحتياط في أوّل بدايات حرب برزان وكان لي أن أكون ضمن أوّل المواليد الّتي دُعيت إلى الخدمة، فأتحول من معلّم لغة عربية لصفي السادس والخامس في مدرسة تقع في عمق الاهوار إلى جندي مشاة فوق ربيئة عالية في جبل هندرين.

اكمة خضراء

ومن فوق الربيئة كنت أتأمل السفوح والمرتفعات الممتدة على مد النظر إلى جبال أبعد، وحين ادير وجهي إلى الوراء تمتد أمامي سابحة ذات الاكمة الخضراء من قرى المندائيين أهلي في الجنوب البعيد وعلى مقربة من بيوتهم المنعزلة في زاوية ضوئية يختارها الكهنة بعناية تكون قريبة منها قرى المعدان الذين كلّما مر أحدهم مع جاموسته ورآني أطعم الطائرين حب الرقي والبطيخ، صاح علي: أطلقهما واجعلهما حرين كما جاموستي.وابعد منها تلوح لي قرية ممتدة في أفق الماء في تلك الاكمة البعيدة من القصب والعباءات السود المتشحة بخجل السير امام المدرسة خوفا من نظرات المعلمين الخاطفة، فيلوح في ذلك الافق الاخضر القفص الملون لطيور الكناري، لكن القبر لا يظهر في الصورة، ومع متعة التخيل والتأمل في أوّل يوم لك فوق ربيئة هندرين يتقدم إليك أحد الجنود ليعرف بنفسه: أنا جبار عودة صيهود من أهالي عفك الّتي قيم الركاع فيها، ولكنهم هنا ينادونني (دخيل كناري)؛ لأني أهوى تربيتها ولدي قفص هنا فيه عشرة طيور ملونة من طيور الكناري.قلتُ مندهشا: يا إلهي حتّى هنا يوجد دخيل كناري. اي صدفة هذه.قال: لا أظنُّ أن احداً في هذا العالم يسمونه دخيل كناري غيري.ضحكت: وسردت له قصة جدي دخيل يوم اهداني في طفولتي قفصا فيه طيري كناري.

دمعت سقطت من أجفان النائب العريف ابن عفك وقال: لو كنت من تعرض إلى انتحار واحد من طيوره لأقمت مأتماً وعزاء لثلاثة ايام.انتهت روايتي لقصة نسي ابيه أن يرويها له، تحرك الدموع الصافية مثل ندى صباحات شجر البمبر في الجنوب المشتعل صيفا والقارص البرد شتاء، سمعت نحيبه، وتمنيتك يا شاكر أن تكون موجودا لأستعير منك منديلك الفرنسي الأبيض الذي كنت تضع عليه ذات العطر الذي تضعه اديث بياف قبل أن تؤدي اغنياتها الّتي تعرف انها ستبكي في نهاياتها.

الكلّ يشمون العطر حتّى جاري الإيطالي الذي ترك سحر نابولي، وجاء يسكن قربي في المدينة الألمانية الصغيرة، وهو من استعاد معي بهجة التذكر حين يدعوني لاشرب معه القهوة ويسألني عن بلادي، ومثل اب حنون يحاول ان يخفف عن ظنوني، أنا قد أكره شرب القهوة مع رجل، جنود بلاده تتنزه بدباباتها في محلة الصابئة في الناصرية.ستسمع قصتي معه يا وائل، فهي امتداد لمحنتنا الّتي رمى لنا شاكر فيها رأس الخيط وقال لنا اسحبوه، واذهبوا به إلى جداتنا في ذلك الجنوب المعذب بقلق أرْوَاح ساكنيه منذ أن أرادَ واحد من امراء سلالة أور رمي ابراهيم في كوة النار ليشعل في الأرض حزن الأنبياء وغضبهم السماوي فتعلن الحروب وتباد الشعوب، وفي كلّ عصر سيكون علينا الاستعانة بمؤرخ أو فيلسوف أعمى ليروي ويفسر لنا ما حدث.هل تذكر يا شاكر، ولنذكر وائل أيضاً كيف كنا نهيم معا بأفلام صوفيا لورين وجينا لولو بريجيدا، والان أبنائهم تطوعوا جنودا وذهبوا ليرعبوا أرْوَاح العراقيين.

وهذا جاري الإيطالي يريد أن يعتذر بالبكاء أمامي، ولكن عندما يكون ثملا. فأرضى منه دموعه واربت على كتفه، واتذكر آخر لقاء لنا في مقاهي على ضفاف السين قريبا من جسر ميرابو، وأنا انتبه إلى ملاحظاتك على نص الروح السومرية والمندائية المسكونة بذعرها من جنود روما الذين أتوا بدعوة صارمة من رامسفيلد ليمسكوا الأراضي الّتي يحتلها المارينز وينسحبون منها متجهين صوب بغداد.كلّما اذكر اسم بغداد، كنتِ تبكي يا صاحب مسوّدة أرْوَاح العراقيين، فأحاول أن اسعد فيك حزنك على بغداد الّتي نهبوا متاحفها واحرقوا أرشيف مكتبتها الوطنية، اقرأ امامك نصي الجديد، واهمس لك لنطرب خواطرنا بسحر أجفان تلك الإيطالية المدهشة مونيكا بيلوشي...

تسحب أنت الأوراق إلى عينيك، وتصادف اللحظة الفاتنة في قراءة خواطر مونيكا أن نادلة المقهى المسماة (وجنتي آرثر رامبو) هي إيطالية أيضاً.

نرتشف ابتسامتها ونحافة ساقيها في نظراتنا، وتهمس لها دعيني أقرأ، وابعدي عني انوثة الغنج فيك، فإني أريد ان أكتشف في قلم صديقي نعيم ما توارد في دمعته وذعره من أوراقي الّتي أرسلتها له، لقد ادخل في لجتها سحر بيلوشي، وحرك في رؤيتي لموت أهلي هناك عاطفة أخرى، احسبها اجتمعت بصدفة عجيبة بين المعري ودانتي، ولا تمتع خواطرها، وعليك ان تعرف يا صديقي السومري أنا مثلك ذهبت إلى كان أوّل مجيئي إلى فرنسا، فقط لأرى في أجفان صوفيا لورين لهفتي لسحر إيطاليا فينا منذ أيام قيصر، وافلام هرقل الّتي يؤدي دورها ستيف ريفرز ومارك فورست وجوليا ناجيما ؟

تقادم المودة

ضحكتُ وقلت: إذن نحن كما المتصوفة لنرتدي أرْوَاحنا في تقادم المودة والاشتراك بغرام عطر أيامنا القديمة على الرغم من أننا لم نكن نعرف بعضنا ولم نلتقي حتّى جمعتنا أرْوَاح العراقيين الّتي نزع عنها المحتلون ثياب فطرتها ونقائها وحلمها وعلينا أن نخيط لتلك الأرْوَاح ثياب جديدة تستر عريها، خذ اقرأ.

أرى شاكرا يدفن نظراته في أوراقي، واتمنى لك يا وائل ان تقرأ معه.

((خاطرة مونيكا أوّلا))

تكتب مونيكا بيلوشي في أوراق صباحات القهوة على شرفة شقتها البحرية في البندقية: أنا أجمل من شكسبير، لكن حرفه أروع مني، ويكتب خالي عريف المدفعية جهاد سهر، العدد واحد في المدفع الروسي 152ملم وهو يتوسد تراب الغري: أنا أجمل من موسليني، لكن موسليني هو من يجلب مدافعه قريبا من بستاني الآن...بقيَ الايطاليون أكثر من عامين، أشتروا الخبز من مخابز شارع عشرين، وغامروا بالذهاب ليلا وخلسة إلى المقبرة الملكية في أور وهم سكارى من أجل تقبيل شفايف الأميرة شبعاد. فامتلأت افواههم بالتراب وبراز ابن آوى... لن يحصلوا على ملحمة في ازقة الناصرية، سوى عربة تانكر مفخخة، عصفت بأرْوَاح الكثير منهم.عام 2004كانت مونيكا ممثلة مبتدئه ولكنها اذرفت دمعة على الجنود، ومن امنياتها أن تسكب النبيذ الأحمر على مؤخرة برلسكوني، لكن رئيس الوزراء المراهق كان في وقتها في مدينة طنجة المغربية لتهيئة حفل زواج أبنته.لا يهم، التفريق بين المحتل والمختل، عقل يفقه فيه سوى الكاهن معنى أن تبتل مؤخرة الديكة بالواين الأحمر.

عامان، وكلّما تمر مدرعة على جسر الناصرية، اسماك كثيرة تنفق وغرقى يحتجون، وذكريات طفولتنا المكتوبة على حديد الجسر تستعيد لقطة مغرية من أفلام صوفيا لورين.

يتبع

صوفيا لورين

نجم أفل

كم هي النجوم التي أفلت في سماء العراق الذي تتلألأ فيه النجوم .. تلك النجوم التي اضاءت الطريق لشعب العراق ، ولعل نسبة النجوم التي ضمها هذا الشعب هي الاعلى بين الشعوب .. اقولها وبحيادية كاملة وسوف لن تصدقوني ... وستصدقونني ان سطرت لكم اسماء تلك النجوم في عراقنا لتجدون أن شكسبير الذي تطبل له الدنيا كلها لم يكن ارقى من الجواهري ولا مظفر النواب ولا الرصافي او الزهاوي وستجدون ان كل وزراء المالية في العالم لم يحققوا ما حققه العراقي الاصيل حسقيل ساسون لشعبه العراقي.. وستجدون الكثير من تلك النجوم اللامعة في العسكرية والادب والسياسة وغيرها .

نجمنا الذي أفل اليوم وسيبقى نوره هو اللواء الركن المتقاعد داود المعاضيدي مدير المشاة في الجيش العراقي عام 1984– 1988

دخل الكلية العسكرية بالدورة (31) في العام الذي كنت فيه في رحم امي 1952 وتخرج منها عام 1955ودخل كلية الاركان العراقية بدورتها (29) 1964 -1962 وأشغل مناصب القيادة ومناصب الركن حتى صار مديرا لصنف المشاة .1988 – 1984

النجوم الحقيقية هي التي تعمل بصمت وتواضع بل وترحل بصمت وتواضع فأنا جاره الملاصق منذ اشهر ولم اعلم برحيله حتى بعد تشييعه وكنت قد تشرفت بزيارته مرات عدة وكان يتحدث خلال تلك الزيارات بطريقة لا تشعرني حتى بأنه اكبر مني سنا بل لم يكن يتحدث عن نفسه وعن خدمته الطويلة بل كان يتحدث عن الجيش العراقي ومعاييره وسياقاته الثابتة في العهد الملكي والجمهوري وما تلاه ، ولم تكن تستطيع ان تستشف من حديثه هل هو مع هذا العهد ام ذاك .. هو يشرح لك فقط بحيادية تامة عن هذا الجيش بمهنية وحب يصل الى حد التقديس لجيش العراق بعد الله. ومن حبه ذاك تجد ان عينيه تدمع عندما يشاهد طالب كلية عسكرية يمر من امامه فيوقفه ويسأله عن وضع الكلية ومستوى التدريب والضبط العسكري وينتبه اليه بشغف فمثل هؤلاء الفرسان يعرفون ويقدسون جيش العراق ولا تدخل في حساباتهم جيش سابق وجيش حالي ،ونظام ملكي او جمهوري .. بعثي ام دعوتي.. ملائكي ام غير ذلك

كوني عاشق ولهان لجيش العراق ورموزه البررة من امثاله وكوني لا يمكن ان اعرف عن الفقيد الكثير كونه دخل الجيش قبل ولادتي كنت اسأل عنه صديقه الذي بينه وبين الفقيد دورة واحدة في الكلية العسكرية والذي دخلت الآداب قسم اللغة الانكليزية لأجده معي في الصف الاول انه الفريق الركن المتقاعد طارق محمود شكري الذي كان مديرا للتدريب العسكري وطالبا في صفي في الوقت نفسه في العام 1977 وهو عميد ركن وانا ملازم اول.. ومع كل هذا العمر الطويل لا زال يفكر بشكل راق ويكتب بشكل راق وآخر مؤلفاته كانت عن العقيدة العسكرية التي لا يعرف معناها الكثيرون لحد الآن .. كنت اسأله عن جاري ووالدي الفقيد فيتحدث عنه بشكل يجعلك تتعجب وتسأل نفسك لماذا لا يتحدث الفقيد عن نفسه اذا كان يحمل كل تلك الصفات .. تأتيك الاجابة على لسان السيد الفريق بأنه ذاب في هذا الجيش الذي يحبه اكثر من نفسه ، ويردف القول سائلا : هل اخبرك بأنه كان بطل الجيش العراقي في الرماية بالمسدس عندما كان ملازما ؟؟ اجيبه بالنفي فيخبرني بأنه شارك بدورة في الاستطلاع معه في الاتحاد السوفياتي عندما كانوا ملازمين فتحداه مقدم كان بطل الاتحاد السوفياتي في المسدس فغلبه الفقيد فما كان من المقدم السوفياتي الا ان يؤدي له التحية قائلا انت اول انسان يغلبني ..

يقول السيد الفريق باختصار عنه انه كان عنوانا للمهنية والروح الوطنية العالية بكل اصالة العراقي .. ويقول افخر بصداقتي له فهو من الرجال النادرين في الاستقامة والخلق الراقي بحيث تم اختياره من لدن مدير الاستخبارات العسكرية محسن الرفيعي ليكون مسؤولا عن سجن اركان النظام الملكي كتوفيق السويدي وفاضل الجمالي ورفيق عارف وغازي الداغستاني وغيرهم الكثير يوم لم يكن هناك لا سجون سرية ولا علنية في ملاكات الجيش وغيرهم وبعد فترة شعر الرفيعي ان الملازم داود كان يقيم علاقات انسانية معهم ويلبي متطلباتهم فخاف عليه واعاده الى وحدته ..

كنت اصغي اليه بدقة ولا اريد ان اطيل عليكم وكنت استغرب من احاديثه الدقيقة حين يقول انه خلال النظام الملكي لم يكن هناك نقطة سيطرة واحدة في عموم العراق وكذلك لم يكن هناك شيء اسمه سرير سفري او شيء اسمه انذار آ او ب او ج .. فذكرت له احد تعريفات الامن ((تكون الدولة آمنة عندما لا تكون مضطرة للقتال دفاعا عن مصالحها))

نم قرير العين سيدي فمن سيرحم رب العزة ومن سيسكن في فسيح جناته ان لم تكن انت من بينهم

عبد الخالق الشاهر
أربيل

بغداد الرشيد أميرة حالمة

برغم ما يحصل لبغداد من ظلم وتجن على مر العصور، تبقى مبتسمة ،حتى وان كابدت وطأة التعدي، ذلك أن لبغداد رأي لا أحد يعرفها عنها، انه سرها الصعب الفهم، او ما يسمى ،فلسفة بغداد في الحياة، ويبدو ان غايتها ان تشغل أكبر عدد من الفلاسفة والكتاب والمثقفين والشعراء بالكتابة عنها انها الساحرة الجميلة، ولبغداد بما تملكه من كنوز العلم والمعرفة والثقافة والتراث والحضارات ،ومن زعامات وباشات وقيادات وحكام ومطربين، وشعراء وشقاوات ،امتياز ما يجعلها تتنفس من رئة تختلف عن نظيراتها جميعا، لكن لبغداد صولة في كل قرن او اكثر، فان بكت أهتز العالم من زلزال شهيقها وحزنها ،واذا أنشرح صدرها بالسعادة صدحت، فأهتز العالم بأسره طربا لدار السلام ، فبغداد أميرة الدنيا .

بغداد تتشابه مع شقيقتها القدس في الصفات كلها، تتعامل مع الظلم على انه قيام الساعة، إن تنازلت عن التحمل ،فانه بنظرها الكبرياء، فمفهوم الغزو والاحتلال عندهما، فرصة ثمينة تتاح لمن يحب التوثيق والكتابة ،ويمارس مهارات التعبير بلغة انسانية، لذا فبغداد تعشق ان يكون اسمها معركة فكرية واسعة، تفجر جذوة الابداع عند الآخرين، وتدفع باتجاه احتدام الرأي والرأي الاخر، وهذه صفات الأميرة تقرأ بشغف لمن يكتب عنها، وتنصت لمن يتغزل بها، فهي ببساطة منذ الولادة بريئة ،لا تعرف ظلم الآخر، شعارها مظلومة، ولا ظالمة.

لكن لبغداد رأي في من حكم فيها من ابنائها، فتقول ان هارون الرشيد كان إبناً بارا لها، والمأمون ، أمينها ،وحارس مكتبتها (دار الحكمة)، ففي عهده انتعشت حركة الشعر والفن والموسيقى والجمال ،واصبحت بغداد عاصمة الدنيا ،وحاضرة بني العباس، وفيها المكتبة الأسطورية (بيت الحكمة) لا يمكن لقاريء ،وطالب علم يستغني عنها ،وفي عصر الرشيد أصبحت مركزا تجاريا عالميا، بغداد قالت انا أم الديانات والمذاهب ،والاعراق، ولا ينتمي لي من يعزف للحن الكراهية والبغضاء. هذه بغداد عندما سئل أحد عشاقها من المفكرين، هل بغداد بمستوى لندن، قال لا، لكن لو، اجتمعت كل من لندن وباريس وبرلين ومدريد، وواشنطن، يمكن أن تساويها . وقالت فيروز عنها..

بغدادُ والشعراءُ والصور ذَهَبُ الزمان وضوعه
العطرُ يا ألف ليلةٍ يا مكملة الأعراس يغسلُ
وجهكَ القمرُ.

فاضل البدراني
بغداد